وحيدتي

آراء في ديوان فدوى طوقان الجديد

ننشر فيما يلي رأيين في ديوان الشاعرة الكبيرة فدوى طوقان ((وجدتها)) ، مع ايماننا بان الديوان يحتاج الى مزيد من الدراسة والتعمق والتحليل ((الآداب))

- ١ -

اذكر انني كتبت قبل عامين رسالة الى فدوى طوقان ، اعبر لها عن اعجابي بشعرها ، واذكر انني قلت لها في رسالتي تلك انه يخيل الي عند سماع قصائدها من وراء المذياع ، انني اشاهد جبال بلادي ووديانها وسهولها وهضابها وجداولها وينابيعها من خلال عباراتها الثرية الغنية . واجد انني ما أزال عند رأيي الاول بعد ان استمتعت بمطالعة ديوان فدوى الجديد ((وجدتها)) الذي صدر عن دار الآداب ببيروت .

ترى ما الذي وجدته فدوى حتى جعلت من ذكره عنوانا لديوانها ؟ لا شك انها وجدت شيئا هاما جديرا بالملاحظة . والذين طالعوا ديوانها الاول .. ((وحدي مع الايام)).. يذكرون الفتاة الحائرة الموزعة القلب ، يذكرون الفتاة التي تضطرب روحها بين اليأس والرجاء ، بين السعادة والشقاء، بين كبرياء الذات المتطلعة الى المجهول ، واشواق الروح نحو الاندماج بكل ما في الحياة من حب وألم وعطاء .. فهل عثرت الشاعرة على امنيتها الضائعة ؟ هل وجدت مطلبها البعيد ؟ هل اهتدت الى السر الكامن في اعماق الغيب ؟ اجل ! يبدو لي ان فدوى وجدت امنيتها ، ذلك الشيء الذي بحثت عنه من قبل دون جدوى . اجل! لقد وجدت فدوى نفسها ..

وجدتها يا عاصفات اعصفي ... وقنعي بالسحب وجه السما
ما شئت يا ايام دوري كما ... قدر لي مشمسة ضاحكه
او جهمة حالكه

فان انواري لا تنطفي ... وكل ما قد كان من ظل
يمتد مسودا على عمري ... يلفه ليلا على ليل
مضي ثوى في هوة الامس ... يوم اهتدت نفسي الى نفسي .

في شعر فدوى التماعات وجدانية بالغة العمق تبعث في النفس نشوة لذيذة اشبه ما تكون بالنشوة التي تعقب الشراب ، ولكن شتان بين نشوة ونشوة ، فتلك تخدر الجسد وهذه تخدر الروح ، وتطير بها الى عوالم بعيدة ، فيها السحر والخيال وفيها الحب والجمال .

وهذه الوجدانية العميقة لم تجيء عفوا في شعر فدوى فهي همسات نفس صهرتها الالام ولفحتها نار الاسى والحب والانتظار . ولكن تبارك ذلك الالم الطاهر الذي مس قلبها ففجر فيه ينابيع الالهام ، وتباركت تلك النار التي صهرت روحها ففاح منها ذلك العطر الذكي المضمخ بعبير الخلود .

لقد سما شعر فدوى حتى بلغ مرحلة التصوف ، وانت تحار عندما تقرأ بعض مقطوعاتها كما تحار عندما تقرأ اشعار ابن الفارض ، اتراها تخاطب انسانا حيا يعيش في عالمنا ام تخاطب ذلك المجهول الرابض في عالم الاطياف ؟

نادني من آخر الدنيا البي ... كل درب لك يفضي فهو دربي
يا حبيبي انت تحيا لتنادي ... يا حبيبي انا احيا لالبي

ان القاريء يرى من خلال الفاظها عالما زاخرا بالحياة يموج بالعواطف السامية الطيبة

وبغتة في لفتة عابره ... لقيته يملأ دربي سناه
لقيته لم ادر من ساقه ... الي من وجه نحوي خطاه
لقيته لا حلما انما ... حقيقة ساطعة باهره
عانقت فيها حين عانقتها ... الله والحب وسر الحياه
يا جذل الروح ونعمى الوصول ... لقيت سري الضائع المبهما
لقيت سر يي بغتة بعدما ... ظننته اناى من المستحيل

اما قصيدتها الطويلة ((هو وهي)) فتحتوي على قصة فتى وفتاة: الفتاة من فلسطين والفتى من مصر . ونحن نرى الفتاة تتحدث اولا عن وحدتها واحلامها وعن حيرتها ، اذ تقضي لياليها مسهدة الجفن لا رفيق لها سوى اشواقها وشجونها . ثم تلتقي به ، تلتقي بعباس كما تدعوه في قصيدتها ، فيتبادلان عبارات الاعجاب . هو معجب بشعرها وبثورتها على مظالم المجتمع وبالصدق والاخلاص الذي تشتمل عليه عباراتها ، وهو يتساءل عن مسحة الالم التي تظلل وجهها وتطفو على نظراتها ، ويعترف لها بميله وهواه . اما هي فمعجبة بنضاله ، لقد قرأت قصته مرتسمة على وجهه :

كان في الوجه الرقيق الضامر ... طائف من الم حي، ومن حزن بعيد
والجبين العربي التعالي ... حفرت كف النضال
فوقه قصة عمر ... عاصف جهم الظلال

ويتجلى لنا هذا واضحا في قولها على لسانه :

وحاربت يا ليل ، حاربت من اجل حرية الوطن العربي
وهذي جراحي ، فلسطين تعرف كيف سقتها بكاس روى

من الواضح اذن ان عباس جاء الى فلسطين عندما توارد المجاهدون اليها كي يدفعوا خطر الصهيونية ، ومن الواضح انه اصيب بجراح في ساحات القتال :

والتقت عيناهما في نظرة دامعة جذلى طويله
حين مرت بحنو راحتها ... فوق جرح كم تمنت لو يداها ... لفتا في ساحة الحرب ضماده

يعيشان في ظل الاماني المعسولة واحلام الهوى العذبة فترة من الزمن ، وتنقضي الايام سريعا كما تنقضي جميع ايام الصفاء والهناء ، ويغادر عباس فلسطين الى مصر . وتلتقي هي به بعد عامين على ضفاف النيل حيث يتناجيان ويطهران نفسيهما بالاعتراف ، وينتهي المشهد دون وقفة حاسمة .

ويخيل الي ان في الديوان قصيدتين يصح ان نلحقهما بهذه الاقصوصة الشعرية : اما الاولى فهي التي تصف فيها رحيله وكيف اصابها الذهول والوجوم لتلك المفاجأة العنيفة . قال لها انه راحل فهوت العبارة على قلبها كالساطور المسمم ، وجمدت الدموع خلف جفنيها ، فلم تبك ، وسرح بصرها في الفراغ ، في اللاشيء ، ولكنها احست انشيئا انهد في اعماقها وان الجليد اخذ يزحف في عروقها . واما القصيدة الثانية فهي التي تجيب فيها على اسئلة المتسائلين الذين يرغبون في معرفة ذلك الحبيب الذي تبذل له من ذات نفسها وتنشد في حبه تلك الالحان الناعمة الحنونة . هنا يكمن طرف من اطراف المأساة ، فالمتسائلون يحسبون ان فتى احلامها واشعارها لا بد وان يكون اطيب الناس خلقا ، واجدرهم بكل هذا البذل والسخاء . ولكن ...

واخفض الطرف وأبقى على صمتي المريب غامضة لا اجيب
واخجلي ! لو انهم يعلمون من انت او من تكون !

ومهما يكن من امر فانه يبدو واضحا ان فدوى بدأت تتخلص من انطوائيتها ووحدتها ، واخذت روحها تخرج الى العالم الفسيح ، عالم الانسانية الواسع ، وفي هذا جواب كاف لاولئك الذين يطلبون من الفن ان يكون موجها هادفا . وأي هدف للفنان اجمل من ان يعبر بفنه عن جمال هذه الحياة ويزيد حبنا لها ؟

ولا مراء في ان فدوى تقف الان في طليعة الشعراء العرب . وافضل ما يمكن ان اقوله في شعرها : هو انه يزيد من شعورنا بجمال الحياة ، ويفعل في النفس ما تفعل الواحة الغناء في نفس الضارب في التيه الفسيح .

عمان — سليمان موسى

*

— ٢ —

ان اهم ما يميز شعر فدوى ، شاعرتنا المتحررة من القيود ، المنطلقة الى عوالم عربية متحررة ، هو البساطة في التعبير مع عمق الصورة التي تقدمها . ان هذه الصفة تكاد تغلب على جميع القصائد وعلى قصيدتها الطويلة « هو وهي » . وقد يرى البعض في بساطة تعبير فدوى جنوحا الى النثرية ، ومع ان هذا الرأي قد ينطبق على بضعة قصائد ، فانه لا ينطبق على الغالب الغالب من قصائدها ، فالموسيقى المؤثرة العميقة تكمن في الانفعال الداخلي للقصيدة . وهذا الاسلوب الذي تنظم به فدوى ، هو اسلوب مميز ، ولا يمكن بأية حال من الاحوال ان نرى في هذا الاسلوب بعدا عن الشاعرية ، لان العطاء الذي تقدمه لنا فدوى عطاء انساني اخاذ ، وواقعي الى ابعد حدود الصراحة .

ومما لا شك فيه ، ان الاوضاع العائلية والاجتماعية والعلاقات الشخصية التي مرت بها فدوى في حياتها ، منذ ان وعت الحياة ، كانت عاملا رئيسيا في جنوحها نحو الواقعية ، بما فيها من صراحة انثوية جميلة ، وانسانية اخاذة .

ان شخصية فدوى الانثى ، وافكارها القلقة المتوثبة ، وطموحها الى ما هو افضل ، يبدو لنا واضحا خلال معظم قصائد الديوان . وتمتزج هذه الشخصية وهذه الافكار بالصراحة وعمق المحتوى وبالوضع الاجتماعي الذي تحياه فدوى لينطلق صرخات انسانية وطنية آنا ، ونفثات وجدانية آنا آخرا ..

فمن انطلاقاتها الانسانية قصيدتها في العدوان على مصر :

هذه الشعلة من قال يلاشيها الطغاة الغادرون
البغاة المجرمون
وهي ارث البشريه
هبة الله السخية (ص ٢٤)

ومن انطلاقاتها الوجدانية المثيرة :

يا حبيبي انت تحيا لتنادي
يا حبيبي أنا احيا لالبي
صوت حبي
انت حبي
انت دنيا ملء قلبي
كلما ناديتني جئت اليك
بكنوزي ، كلها ملك يديك
بينابيعي ، بأثماري ،بخصبي
يا حبيبي ... (ص ٨٠)

والصفة الاخرى التي تميز مجموعة فدوى ، هي التخلص من رواسب الماضي — وان لم يكن تخلصا كاملا — وقلقه وقيوده الثقيلة ، على نفس شاعرية تود الانطلاق ، وترغب في التجديد .

ويظهر هذا التخلص في بوق التفاؤل الذي ترسل فدوى عن طريقه ، موسيقاها العذبة الجديدة ، والذي انطبع على معظم قصائد الديوان .

اننا نستبشر خيرا من النظرة التفاؤلية التي انطبعت على عيني فدوى ، ونعد هذا مقدمة لقصائد جديدة مبدعة ، كما نستبشر خيرا من تخلصها من قلقها العنيف ومن نهايته الجميلة :

وجدتها يا عاصفات اعصفي
وقنعي بالسحب وجه السما
ما شئت ، يا ايام دوري كما
قدر لي ، مشمسة ضاحكه
او جهمة حالكه
فان انواري لن تنطفي
وكل ما قد كان من ظل
يمتد مسودا على عمري
يلفه ليلا على ليل
مضى ، ثوى في هوة الامس
يوم اهتدت نفسي الى نفسي (ص ٤٠)

على ان مجموعة فدوى « وجدتها » لم تخل من الضعف . فقصيدة « ساعة في الجزيرة » لم تحقق المطلوب منها ، فالمفروض فيها ان تكون تأملات ، الا ان هذه التأملات لم تنطلق ، لانها كانت محصورة في نطاق محدود من الخيال . ان النافذة التي فتحتها فدوى في هذه القصيدة لم تكن تشرف على طريق طويل . ويبدو ان فدوى قد أحست بذلك ، فالتجأت الى الاستزادة من الحشو ، من مثل

سيأتي الغد ـ ويتلوه ما بعده ـ ويجيء سواه ـ وآخر يتبع آخر ـ ويعبر عام ـ وعام ـ وآخر . (ص ٩٩)

ان بساطة التعبير وعمق الصورة ، تتطلبان نوعا من الاختصار المركز ، او نوعا من الافاضة الملذة ، الا ان (ساعة في الجزيرة)لا تحقق هذا الامر ، او انها تفض النظر عنه .

اما قصيدة « هو وهي » وهي اطول قصائد المجموعة ، فحسبها انها تصور واقعا وحياة اجتماعية تمر بها كل فتاة عربية ، مظلومة ، منسية وراء جدران التقاليد البالية ، مطمورة تحت اقدام الحجاب والشرف المزيف

ان هذه القصيدة القصة ، او هذه القصة الشعر ، تصور باختصار ملذ حياة الفتاة المرمية وراء الجدران ، فهي والحال تقف بعناد وقوة في صف الانسان ، من اجل حياة كريمة يسودها الاخاء والحرية والمساواة . وأجمل ما في القصيدة شخصياتها النضالية العنيدة ، الواقفة بصبر وشرف وعزة امام الهياكل الرثة : التقاليد والاستغلال والاستعمار .

فالشاعر الذي ولد فقيرا ، تطارده الرياح ويلعنه الليل ، كان يكدح من اجل الرغيف والقوت ، ولم يكن يسكت عن « الغاصبين حقوق الفقير » و « السارقين جنى الكادحين » ، بل كان يصب جام غضبه في قصائده ، لاعنا الظلام ، وراكضا وراء النور .وما ان فتح عينه على حقيقة حياته ، حتى رأى امته سليبة عزها في « فلسطين » ، وحتى رأى شباب امته يناضلون ، فما كان منه الا ان انخرط في سلكهم :

وقمت اثور مع الثائرين لاحطم نير عبوديتي
وارخص تحت عجاج الكفاح دمائي من اجل حريتي
وحاربت يا ليل ، حاربت من اجل حرية الوطن العربي
وهذي جراحي ، فلسطين تعلم كيف سقتها بكأس روي (ص ١٨٣)

والشاعرة التي طوقت في سجن وراء الجدران ، تحجب عينيها عن النور اسطورة الشرف الموهوم ، وتحيط بنفسها التواقة الى الانطلاق والحرية والهواء ـ مستنقعات التقاليد العفنة ، لكن هذه المستنقعات وتلك الجدران لا ولن تستطيع ان تحجب عن عينيها النور والحب :

يا لقلبي الموتور كم رنحته
نشوة الانتقام من جلادي
وأنا في مشاعر الحب غرقى
وهو خلف الابواب بالمرصاد
أبوسع السجون خنق الاحاسيس ،
وقتل الحياة في الاعماق
من يصد الشلال عن سيره الكاسح،
عن اندفاعه الدفاق ؟ (ص ١٩٨)

*

وبعد ... فان مجموعة فدوى طوقان ، شاعرة الانسانة العربية ، مجموعة جديرة بالتقدير والدرس والنقد .

انها ـ بالاجمال ـ صفعة في وجوه الذين يودون العودة بنا الى الورآء ، والذين لا يزالون يؤمنون بالتقاليد العفنة ، والمستنقعات القذرة والاساطير المزيفة ...

العراق ـ الحلة — علي الحسيني

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

بيروت

ص.ب ٤١٢٣ ـ تلفون ٣٢٨٣٢

*

الادارة

شارع سوريا ـ رأس الخندق الغميق ، بناية الاسمر

*

الاشتراكات

في لبنان وسوريا : ١٢ ليرة

في الخارج : جنيهان استرلينيان

او ٥ دولارات

في اميركا : ١٠ دولارات

في الارجنتين : ١٥٠ ريالا

تدفع قيمة الاشتراك مقدما

حوالة مصرفية او بريدية

*

الاعلانات

يتفق بشأنها مع الادارة

*

توجه المراسلات الى

مجلة الآداب ، بيروت ص.ب. ٤١٢٣